

بناء المجتمع العراقي في العصر العباسي

(دراسة تاريخية عن الطوائف الدينية والطبقية وعناصر السكان)

للكنورة ملحة رحمة الله

قسم التاريخ - كلية الآداب
جامعة بغداد

نهض العراق بدور كبير أيام مجد الدولة الإسلامية وعظمتها . وحسب العراق أنه ظل بضعة قرون قصة الخلافة العباسية ، وهي الخلافة التي اتجه إليها الشطر الأكبر من المسلمين بقلوبهم ودانوا لظاعتها . وإذا كان القرنان الثالث والرابع للهجرة يمثلان أزهى أيام الحضارة العربية الإسلامية والعصر الذهبي لمجادها ، فإن هذه الصفحة المشرقة ارتبطت ارتباطا واضحا بالعراق ، الذي كان عندئذ بمثابة القلب النابض بالحياة في جسم الدولة الإسلامية الكبيرة .

وقد ساعد ذلك الوضع الممتاز الذي احتله العراق وسط بقية البلاد والأمصار الإسلامية في العصر العباسي على اعطائه طابعا خاصا مميزا ، وبخاصة في تكوينه وبنائه الاجتماعي . ذلك أن العراق غدا في ذلك العصر مقصد علماء المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها وملتقى الرحالة والقصاد ، وهدف الرسل والمبعوثين . ومن هؤلاء وأولئك من طاب له العيش بالعراق ، فاختار الإقامة على مقربة من الخلافة ، يحظى ببركتها وينعم بما يصيبه من كرمها واعداقها ، وينهل من فيضها وجودها - وهكذا تجمعت بعض العوامل التي ساعدت على تعدد الأجناس والطوائف في العراق في ذلك العصر .

وبالإضافة الى ذلك لا تسمى أن الدولة العباسية قامت على أكتاف الموالي والفرس واتخذت منهم في عصرها الأول دعامة تستند إليها وركيزة اعتمدت عليها في رفع صولجان ملكها . وعندما ضاق الخلفاء العباسيون ذرعا بازدياد نفوذ الفرس في شؤون الدولة ، اتجهوا نحو الأتراك واتخذوا منهم بطانة لهم وقوة تساعدهم على الاحتفاظ بملكهم ضد الأخطار التي أخذت تهدد كيان دولتهم في

الداخل والخارج في العصر العباسي الثاني . وبذلك شاءت الظروف أن يصبح العراق مجعاً للعرب والفرس والترك جميعاً ، قد تتعارض مصالحهم وتتضارب أحياناً ، ولكن الكل يربطهم رباط واحد هو رباط الاسلام ويوحد بينهم شعور الولاء للخلافة .

فاذا أضفنا الى هذا كله موقع العراق نفسه ، أدركنا في النهاية السرفى تعدد العناصر والطوائف التى شهدها العراق فى العصر العباسى . فالعراق يمثل الباب الشرقى للوطن العربى - ولا أقول الاسلامى - ومعنى ذلك أنه كان على اتصال مباشر أو غير مباشر بالعناصر الاسلامية - غير العربية - التى عاشت فى غرب القارة الآسيوية ووسطها . والعراق الذى يمتد من الخليج العربى جنوباً حتى أطراف الشام والأناضول شمالاً كان دائماً أبداً طريقاً حيويماً للاتصال بين الشرق والغرب وشرىانا أساسياً تنتقل عن طريقه حاصلات الشرق الآسيوى الى الغرب الأوروبى . ويثبت التاريخ فى كل زمان ومكان أن طرق التجارة ومحطاتها هى المراكز الطبيعية لالتقاء الحضارات والأفكار والشعوب والأجناس ، فتتعدد فيها الاجناس والطوائف بقدر تعدد البضائع والعملات .

وفى ضوء هذه الحقائق نستطيع أن نلقى نظرة فاحصة على البناء الاجتماعى للعراق فى العصر العباسى .

١ - الأتراك :

ظهر الأتراك بأعداد كبيرة فى المجتمع العباسى لأول مرة فى أواخر القرن الثانى الهجرى ، وذلك فى عهد المأمون ، وأخذ عدد الأتراك فى الازدياد منذ بداية القرن الثالث الهجرى ، فكون منهم المعتصم جيشاً منظماً اعتمد عليه فى خلافته . يقول أبو المحاسن^(١) : ان المعتصم ألبس غلمان الأتراك الدياج ومناطق الذهب وأمعن فى شرائهم سنة عشرين ومائتين ، حتى سيطروا تدريجياً على جهاز الدولة فبرز منهم قواد اشتهروا بشجاعتهم وقوة شوكتهم ، أمثال الأفشين وأشناس وبغا ووصيف وايتاخ^(٢) ، وغيرهم من القواد .

(١) النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٢٣٣ ، الطبرى - تاريخ الأمم والملوك ج ٧ ص ٢٣٤ ، المسعودى مروج الذهب ج ٤ ص ٩
(٢) اليعقوبى - تاريخ ج ٢ ص ٥٧٥

وقد اقام الاتراك بعيدا عن الاسواق ومنعهم المعتصم من الاختلاط بالناس ، فاشترى لهم جواري تركيات ، وزوجهم بهن ومنعهم من التزاوج مع المولدين ، واجرى لهم رواتب خاصة^(١) .

وقد ازدادت شوكة الاتراك في أوائل القرن الثالث الهجري ، حتى يقول صاحب الفخرى^(٢) كان الخليفة في يدهم كالاسير ان شاءوا أبقوه ، وان شاءوا خلعوه ، قعد خواصه واحضروا المنجمين والاتراك في مجلسه ، وقالوا لهم : انظروا كم يعيش وكم يبقى في الخلافة . - وكان بالمجلس بعض الظرفاء - ، فقال : أنا اعرف من هؤلاء بمقدار عمره وخلافته ، فقالوا له : فكم تقول انه يعيش وكم يملك قال : مهما اراد الاتراك ، فلم يبق احد في المجلس الا وضحك^(٣) .

وكان هناك الى جانب الجند الاتراك ، الجواري التركيات اللاتي اشتهرن بجمالهن ، يقول ابن بطلان^(٤) : ان التركيات قد جمعن الحسن والبيان ، وكانت قصور الخلفاء والامراء والعظماء تأوى كثيرا من الجواري ، بل ان بعض الخلفاء وكبار رجال الدولة اتخذوا الجواري التركيات زوجات لهم^(٥) . وكان للجواري تأثير كبا في الحياة الاجتماعية فقد نشرن فن التجميل وابتكار الأزياء في المجتمع العراقي عامة ، والبغدادى خاصة^(٦) . فضلا عن اهتمامهن بالتأنق في الملبس والطعام والشراب^(٧) . والاعتناء بالنظافة واللياقة .

٢ - العنصر الفارسي :

تغلغل هذا العنصر في المجتمع العباسي ، منذ قيام دعاة العباسيين بنشر دعوتهم في أواخر العهد الاموي . وقد جنى كل من العرب والفرس فوائد كثيرة ، من جراء اختلاطهم ببعض ، فالعرب لهم قابلية التعليم السريع ، اما الفرس فهم أصحاب حضارة قديمة موروثه ، فأخذ العرب النظم ومختلف العلوم من الفرس .

(١) اليعقوبي - البلدان ص ٢٣

(٢) ابن طباطبا - الفخرى في الآداب السلطانية ص ٢٢٠

(٣) ابن طباطبا - الفخرى في الآداب السلطانية ص ٢٢٠

(٤) انظر : أحمد امين - ظهر الاسلام ج ١ ص ٣٥

(٥) عبد الرحمن الأربلي - الذهب المسبوك ص ٢٢١ ، ٢٣٧

(٦) أحمد ممدوح حمدي - معمدات التجميل بمتحف الفن الاسلامي ص ٨

(٧) أبي الطيب محمد بن اسحاق الوشاء - الموشى ص ١٦٢ - ١٦٤

اما اثر الفرس فى المجتمع ، فكان واسعا وظاهرا ، اذ ابتداء منذ قيام الدولة العباسية فى مستهل القرن الثانى للهجرة كما تقدم . وتجلى فى عدة نواح منها بناء القصور ، وابتكار الأزياء ، وتمدد أنواع الطعام ، وادخال جميع وسائل الترف والبذخ فى المجتمع العراقى . كبناء القصور ، وزخرفتها ، وتأثيها بأفخر الأثاث^(١) وحياء المجالس الغنائية ، ومجالس الشراب ، وفى الملابس ، كالقلانس ، والأقبية ، والسراويل والجوارب ، وغيرها من الألبسة التى انتشرت فى المجتمع العباسى ، ما هى الا ألبسة فارسية الأصل ، كما تجلى التأثير الفارسى فى أزياء النساء ، من استعمال الخلى والمجوهرات والأحزمة ، والنقش على الاردية والعصائب^(٢) . وتجلى ايضا ، فى أدوات الطعام التى كانت تستخدم فى موائد الخلفاء^(٣) والوزراء^(٤) ، وكانت مصنوعة من الذهب والفضة^(٥) والبلور^(٦) . هذا وكان للجوارى الفارسيات ، تأثير كبير فى المجتمع العراقى - كما كان للجوارى التركيات - فنشرن أنواعا من الألبسة ، كما أدخلن صورا من التزين لم تكن ملحوظة من قبل .

وكان للعنصر الفارسى ، أثر كبير فى اهتمام الخلفاء العباسيين ، ورجال دولتهم بالاحتفال بعيدى النوروز والمهرجان ، وهما من الأعياد الفارسية^(٧) .

الروم :

لقد جرى بهم كأسرى حرب من أراضى الدولة البيزنطية ، واعتبروا من الرقيق الابيض وكثر عدد المماليك الروم من رجال ونساء وغللمان ، فى بيوت الخلفاء والاعنياء .

وقد كثر عدد النساء الروميات فى العراق ، عن طريق الاسترقاق ، واعتبرن جوارى وانتشرن تبعا لذلك فى قصور الخلفاء والاعنياء ، لاتصافهن بالجمال ،

-
- (١) أحمد موسى - الفن الاسلامى ص ٢٩
(٢) ابن عبد ربه - العقد الفريد ج ٨ ص ١٣٥
(٣) غريب - صلة الطبرى ص ١٢٨ ، التنوخى - نشوار المحاضرة ج ١ ص ١٤٤ - ١٤٦
(٤) هلال ابن الصابى - الوزراء ص ٢١٥ - ٢١٦
(٥) الفزالى - احياء العلوم ج ٢ ص ١٦
(٦) الثعالبى - بتيمة الدهر ج ٢ ص ٣٧٧ ، أحمد أمين - ظهر الاسلام ج ١ ص ١٠٤
(٧) القلقشندى - صبح الاعشى ج ٢ ص ٤٢٠

يقول ابن بطلان في وصفهن « الروميات بين شقر ، سباط الشعور ، زرق العيون الى آخره . وقد برعن في الغناء والضرب على الآلات الموسيقية^(١) » كما اصبح بعضهن في منزلة رفيعة عند الخلفاء والاعنياء ، عندما اصبحن امهات وزوجات لهم ، ويذكر انه كان لبعض الروم الذين استوطنوا الدولة الاسلامية ، نشاط أدبي وعلمي ملحوظ ، من بينهم الشاعر المعروف ابن الرومي ، وابو الفتح ابن جني الذي نبغ في النحو والمصرف^(٢) .

عناصر الرقيق :

نوعان من الرقيق ، الأسود والاييض ، ويشمل الأول ما يجلب من ساحل افريقيا الشرقى وهم الزنج^(٣) . أما الثاني وهو الايض ويشمل الترك ، والروم ، والأرمن وغيرهم^(٤) .

ولأهمية الرقيق وكثرته أنشئت له أسواق كبيرة ، يشرف عليها تجار يعرفون بالنخاسين ، وكان ببغداد شارع يعرف باسم دار الرقيق^(٥) . كما كان هناك نواح بهذه المدينة ، اطلق عليها باب النخاسين^(٦) . وكان بسامراء سوق لبيع الرقيق في القرن الثالث الهجري . وقد يباع الرقيق في البيوت الخاصة ، أو بواسطة التجار^(٧) ومما يجدر ذكره ، أن الرقيق في القرن الرابع الهجري ، قل عدده ، وارتفع ثمنه ، بسبب انقطاع وروده من الاندلس وبلاد الدولة الرومانية الشرقية^(٨) .

وكان يقوم هؤلاء الرقيق ، بأعمال شاقة مختلفة ، في المجتمع العباسي ، فمنهم من كان يقوم بالخدمة في بيوت الاعنياء ورجال الدولة ، وكان لدى الخليفة المقتدر من هؤلاء ، أحد عشر ألف خادم ومنهم من كان يقوم بحراسة النساء ، وخدمتهم ، ويعرفون بالخصيان^(٩) ومنهم من يقوم بحراسة القصور . ومن كان يقوم بفلاحة

(١) الاصفهاني - الأغاني ج ١٩ ص ١٣٨

(٢) أحمد أمين - ظهر الاسلام ج ١ ص ٦٧ - ٦٨

(٣) الدوري - تاريخ العراق الاقتصادي ص ٦٤

(٤) أحمد أمين - ظهر الاسلام ج ١ ص ١٣٠

(٥) الاصفهاني - الأغاني ج ١٠ ص ٩٥

(٦) اليعقوبي - البلدان ص ١٣

(٧) جورجى زيدان - التمدن الاسلامي ج ٥ ص ٢٣

(٨) جورجى زيدان - التمدن الاسلامي ج ٥ ص ٢٣

(٩) أليهقي - المحاسن والمساويء ص ٥٧١

الأرض ، وهم نوعان : السود (الزنج) ، والنوع الثانى النبط ، ويطلق عليهم الافغان^(١) ويعيشون فى القرى وقد اعتبروا تدريجيا مرتبطين بالأرض ، ينتقلون من مالك الى آخر ، من الأرض .

كما كان بعض الجوارى يشتغلن بالغناء ويعزفن بالقيان ، يقول أبو حيان التوحيدى^(٢) : « وأحصينا فى بغداد جانب الكوخ ، ستين وثلاثمائة جارية مغنية » . وكان للجارية التى تتصف بالجمال ، الف دينار^(٣) أما صاحبة الصنعة ، فكان ثمنها غاليا^(٤) . فالتوكل احتفظ بالأربعة آلاف وحرص المقتدر على اقتناء عدد كبير من الجوارى^(٥) . وقد علا شأن بعض الجوارى ، بعد أن تزوج بهن الخلفاء ، ولعبن دورا مهما فى سياسة الدولة كالخيزران^(٦) . والسيدة أم المقتدر^(٧) وقبيحة زوجة المتوكل^(٨) وغيرهن من أمهات وزوجات الخلفاء . وكذلك القهرمانات اللواتى كن يعشن فى قصور الخلفاء ، أمثال علم^(٩) ، وعلى^(١٠) . وقد تحدث ابن بطلان^(١١) فى رسالته (شرى الرقيق) عن ألعيب النحاسين فى تغيير الوجه والجسم ، فقال : انهم كانوا يستخدمون الأصباغ ، والدهون والروائح فى تغيير ملامح الوجه ، وجعله جميلا . وقد أدى التوسع فى اقتناء الجوارى ، ودخولهن بيوت الناس ، على اختلاف طبقاتهم ، الى انتشار الفساد ، وكان لهذه الظاهرة الاجتماعية ، تأثير بالغ فى نفوس أهل الدين والتقوى وبخاصة الصوفية ، فاندفعوا الى الزهد ، حرصا منهم على الدين والتقاليد الاسلامية .

-
- (١) الدورى - تاريخ العراق الاقتصادى ص ٦٦
(٢) الامتاع والمؤانسة ج ٢ ص ١٨٣
(٣) آدم متز - الحضارة الاسلامية ج ١ ص ٢٨٠
(٤) التنوخى - نشوار المحاضرة ج ١ ص ١٣٢ ، ابن الجوزى - أخبار الطراف ص ٩٧
(٥) محمد جمال سرور - الحضارة الاسلامية فى الشرق
(٦) الطبرى - تاريخ الامم والملوك ج ٦ ص ٤٤٧
(٧) مسكويه - تجارب الامم ج ٢ ص ١٥٣
(٨) ابن السام الفاطمى - النبراس ص ٣٦
(٩) مسكويه - تجارب الامم ج ٢ ص ٧٥
(١٠) ابن الجوزى - المنتظم ج ٦ ص ١٤٨
(١١) شرى الرقيق وتقليب العبيد ص ٣٧٩ - الشيزرى - آداب الحسبة ص ٥٠

أما الأرقاء من الذكور ، فهم نوعان ، الغلمان المماليك ، والحصيان^(١) . وفي العصر العباسي اتسرت الخصيان في قصور الخلفاء ، ورجالات الدولة وقد وصفهم الكتاب ومن بينهم الجاحظ في كتاب (فاخترة الجوارى والغلمان) .

١ - الرقيق الأسود (الزنج) :

أدى ظهور الملكيات الواسعة في منطقة البصرة ، وتوفير رؤوس الأموال الكبرى لدى كبار الملاك ، الى شراء مجموعات من الرقيق الأسود ، لاستصلاح الأراضي الزراعية . وقد عاشت هذه المجموعات ، بعيدة عن حقيقة المجتمع العباسي ، لا تعرف سوى العمل المظني ، وطاعة أصحاب الأراضي ، فكان هذا العنصر مستعدا لتلبية أى نداء يدعو الى القيام بثورة ضد ملاك الأراضي ، لتحريرهم من الرق ، واستعادة حقوقهم . وكان ضعف الحكومة المركزية من بين الأسباب التي أدت الى ثورة الزنج لفترة طويلة . وكانوا يدعون الى الاصلاح الاجتماعي ، باسم الدين ، وقد استغل العامة ، ومن بينهم أرباب الصنائع والمهن بصفة خاصة ، هذا التذمر ، وأخذوا يتكتلون ، ويظهرون استيائهم من السلطة الحاكمة . وتجلى ذلك في الحركات الثورية المتمردة على السلطة . كتورات - الجند الذين كانوا يطالبون بأرزاقهم .

٢ - الطوائف الدينية

(١) الاشراف :

ظهر في العصر العباسي جماعة من المسلمين ، تفتخر بقرباتها من الرسول وبنسبها القرشي ، متمسكة بما جاء في القرآن الكريم من الآيات التي أشارت الى قرابة الرسول كقوله تعالى : « انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا »^(٢) وغيرها من الآيات ، ومتخذة من القرابة صفة دينية تميزها عن غيرها ، وقد أطلق عليهم الأشراف أو أهل البيت . وتشمل طبقة الأشراف بنى هاشم من العباسيين والعلويين^(٣) ومع ما كان بين هذين الفرعين من خلاف وتزاع ،

(١) البيهقي - المعاسن والمساويء ص ٥٧٠ - ٥٧١

(٢) سورة الاحزاب آية ٣٣

(٣) ابن طباطبا - الفخرى في الاداب السلطانية ص ١٤٧

فان العلويين أشركوا في بعض المناصب ومنها القضاء ، وامارة الحج ، والنقابة ، كما كان لهم روااتب خاصة .

(ب) أهل الذمة :

تمتع أهل الذمة بكثير من ضروب التسامح الديني ، فأقاموا الشعائر الدينية في أمن ودعة ، وشاركوا المسلمين في وظائف الدولة وفي ممارسة المهن الحرة . ولم يتدخل خلفاء بني العباس بصورة عامة في شؤونهم الدينية الا في بعض الفترات حيث وضعت القيود على الالبسة ، وبناء البيع . وذلك حين يتشدد بعض الخلفاء في معاملتهم أو حين يسند الى أحدهم ، منصب كبير في الدولة . وقد تجلت الحالة الأولى في عهد الرشيد ، والمتوكل ، والمقتدر . فقد أمر الرشيد بهدم الكنائس في الثغور ، وأوصى بأخذ أهل الذمة في مدينة السلام ، بمخالفة هيئتهم هيئة المسلمين في لباسهم وركوبهم^(١) وفي عهد المتوكل ، أمر أهل الذمة ، بوضع صور من شياطين من خشب على أبواب دورهم ، وتسوية قبورهم مع الأرض . كما حتم عليهم لبس زي خاص بهم^(٢) . أما في عهد المقتدر ، فأمر أن لا يستعان بأحد منهم في وظائف الدولة ، وألزموا بلبس العسلى ، والرقاع من خلف ومن قدام ، وأن تكون ركبهم خشبا^(٣) .

وفي أغلب الفترات كان الخلفاء يستعينون بالنصارى في وظائف الدولة . فالمعتمد قلده من النصارى كتابا في الدولة^(٤) . كذلك استخدم الوزير الحسن بن القاسم بن وهب ، النصارى في وظائف كتابية^(٥) . كما اتخذ عضد الدولة ، نصر ابن هارون وزيرا له .

(١) ابن الأثير - الكامل في التاريخ ج ٥ ص ١٢٧ . ويذكر أبو يوسف في كتاب الخراج ص ١٢٧ « ان على أهل الذمة أن يجعلوا في أوسطهم الزنارات ، وان تكون قلائدهم مصرية وان يتخذوا على سرجهم في موضع القرايس مثل الرمانة من خشب وان يجعلوا أشراك نعالهم متينة وتمنع نسائهم من ركوب الرحائل » .
(٢) الجاحظ - البيان والتبيين ج ١ ص ١١٤ ، الطبرى - تاريخ الأمم والملوك ج ٧ ص ٣٥٤

(٣) ابن الجوزى - المنتظم ج ٦ ص ٨٢ ، عماد الدين الدمشقى - البداية والنهاية ج ١١ ص ١٠٨

(٤) هلال ابن الصابى - الوزراء ص ١١٤ ، التنوخى - نشوار المحاضرة ج ١ ص ٣٥ ، هلال ابن الصابى - الوزراء ص ١١٤

(٥) غريب بن سعد - صلة الطبرى ص ١١٤ - ١١٥

وقد أذن له في عمارة البيع والأديرة ، وإطلاق الأموال لفقراء النصارى^(١) ، وكان للخليفة الطائع ، كاتب نصراني^(٢) . وقد احتل الأطباء النصارى منزلة كبيرة لدى الخلفاء ، فاتخذ المتوكل يوحنا بن ماسويه ، طبيبا له^(٣) وكان لا يتذوق طعاما الا بحضوره ، كما كان الطبيب بنان بن سلمون مقربا الى المعتصم^(٤) . وقد حدد الاسلام العلاقات الاجتماعية بين المسلمين ، والنصارى واليهود ، والمجوس والصابئة فسمح بزواج المسلم من أهل الكتاب ، دون أن تجبر الزوجة على ترك دينها والدخول في الاسلام^(٥) . كما أنه لا يجوز للمسيحي أن يتهود ، ولا لليهودي أن يتنصر واقتصر التغيير في الدين على الدخول في الاسلام^(٦) . ولم يكن النصراني يرث اليهودي ولا اليهودي يرث النصراني ، كما لم يكن اليهودي أو النصراني يرث المسلم ، ولا المسلم يرث غير المسلم ، يهوديا كان أم نصرانيا^(٧) وأن ترد تركة من مات من أهل الذمة ولم يخلف وارثا ، على أهل ملته ، كما ورد في حديث الرسول صلى الله عليه وسلم « لا يتوارث أهل ملتين »^(٨) .

أما الجزية ففرضت على أهل الذمة ، وأغنى منها النساء ، والصبيان ، والأطفال والمرضى ، والمعجزون ، والرهبان^(٩) . وقد راعى الحكام المسلمون ، الفرق في جباية الجزية من أهل الذمة^(١٠) .

وكان لأهل الذمة ، خلال القرنين الثالث والرابع بعد الهجرة ، لباس خاص يتميزون به عن المسلمين عامة ، فاليهود ارتدوا البراطيل الطويلة على حين اتخذ النصارى البرانس أول الأمر ، ثم لبسوا القلائس الطويلة^(١١) كما لبس أهل الذمة الخمار^(١٢) .

- (١) ابن الاثير - الكامل في التاريخ ج ٧ ص ١٠١
- (٢) آدم منز - الحضارة الاسلامية ج ١ ص ٩٠
- (٣) ابن ابي اصيبعة - طبقات الاطباء ص ٢٤٦
- (٤) ابن العبري - مختصر تاريخ الدول ص ٢٤٣
- (٥) ابن رسته - الاعلاق النفيسة ص ٢٠٣
- (٦) منز - الحضارة الاسلامية ج ١ ص ٥٦ - ٥٧
- (٧) محمد جمال سرور - الحضارة الاسلامية في الشرق ص ١٧٤
- (٨) هلال ابن الصابي - الوزراء ص ٢٧٠
- (٩) ابو يوسف - الخراج ص ١١٢
- (١٠) ابو يوسف - الخراج ص ١٢٥
- (١١) آدم منز - الحضارة الاسلامية ج ١ ص ٨٤
- (١٢) الجاحظ - البيان والتبيين ج ١ ص ٤١

(ج) الصابئة :

أما الصابئة فلم يكن تأثيرهم في المجتمع فعالا وظاهرا ، اذ لم يكن لهم نشاط كبير كما كانت الحال بالنسبة للمسلمين ، واليهود . ويرجع السبب في ذلك ، الى قلة عددهم وعدم تضاهرهم مع مخالفيهم في الدين ، ولسرية تعاليمهم الدينية . أما المجوس وهم أتباع زردشت . اتخذوا من بيوت النيران معابد لهم وظهرت هذه الديانة في فارس ثم انتقلت الى العراق^(١) . وقد اعترف بهم في القرن الرابع الهجري أهل الذمة كالتصارى واليهود والصابئة^(٢) .

وكان من أثر وجود المجوسية في بعض أرجاء الدولة الاسلامية في الشرق كالعراق وفارس خاصة ، ان ظهرت عدة فرق دينية في المجتمع العباسي متأثرة بمبادئ المجوس لعبت دورا كبيرا في المجتمع كالخرمية والمحمرة وغيرها . وقد ظهر نشاط هذه الفرق في القرن الثالث الهجري وأدى الى قيام ثورات ضد الخلافة العباسية^(٣) . وعرف المجوس بكونهم تجار وأهل حرف فنية^(٤) ، واشتهر منهم بعض الأدباء كابن المقفع^(٥) . ومن الخلفاء من استكتب المجوس في وظائف الدولة فالرشيد استكتبهم على ديوان الخراج وكذلك فعل المأمون^(٦) .

٣ - طبقات المجتمع العراقي

(أ) العلماء :

كانت بغداد مركزا للعلم والعلماء ، منذ مستهل القرن الثالث الهجري ، حتى أواخر عهد بني بويه^(٧) . وكانت للعلماء منزلة كبيرة لدى الخلفاء ، ورجال الدولة ولدى الطبقة العامة . وبين العلماء من كان فقيها أو فيلسوفا ، أو مؤرخا .

- (١) المسعودي - مروج الذهب ج ٢ ص ٢٤٣
- (٢) محمد جمال سرور - الحضارة الاسلامية في الشرق ص ١٧٣
- (٣) ابن الجوزي - المنتظم ج ٥ ص ١١٣
- (٤) المقدسي - احسن التقاسيم ص ٢٢٩
- (٥) الجاحظ - ثلاث رسائل ص ٤٧
- (٦) الجاحظ - ثلاث رسائل ص ٤٧ - ٤٨
- (٧) احمد امين - ظهر الاسلام ج ٣ ص ٢٢١

ولم يكن العلماء يشتغلون بمهن أخرى ، سوى العلم ، اللهم الا العدد القليل منهم^(١) . كما أن غالبيتهم كانت في رغد من العيش . ولم يتميزوا عن غيرهم من سائر أفراد الشعب ، الا في الملبس ، فيرتدى القضاة ، والفقهاء ، المبطنة والطيلسان الأسود ، والدراعة^(٢) ، والقلائس المستديرة ، التي ظلت مستعملة حتى منتصف القرن الرابع الهجري ، ثم أبدلت بالعمائم السود المصقولة^(٣) . وكانوا يلبسون الصوف الأبيض ، ولا يلبسون الحرير والملون الا في بيوتهم^(٤) .

(ب) التجار :

كان أغلبهم يدين بالاسلام ، وأقلية من أهل الذمة ، وبخاصة اليهود^(٥) وهم نوعان ، أولهما كبار التجار وصغار التجار .

واتسع نفوذ التجار ، وبخاصة في القرنين الثالث والرابع بعد الهجرة ، نتيجة ازدياد الترف ، والبذخ ، لدى رجال الحكم ، وعلى رأسهم الخليفة^(٦) . وعلى الرغم من اتصالهم بهؤلاء الرجال الا أنهم لم يصبحوا يوما في مصافهم الاجتماعية ، وانما كانوا يعتبرون غالبا ، من طبقة العامة ، حتى في نظر الأدباء ، والعلماء ، كما اتنا نجد طائفة الأشراف ، حاولت أن تمنع أبنائها من الاشتغال بالتجارة ، لأنها في نظرهم مهنة لا تليق بهم اجتماعيا^(٧) مع أن خلفاء العباسيين ، منذ أن أسست مدينة بغداد اهتموا باقامة الأسواق في الجانب الغربي منها ، واتخذوا الجانب الشرقي ، مسكنا لهم ولطاشيتهم^(٨) وقد عرفت المنطقة التي تجمعت فيها أسواق بغداد ، باسم الكرخ^(٩) .

أما عن مستوى معيشة التجار ، فكان مرتفعا ، حتى بالنسبة الى بعض التجار الصغار ، كما أنه كان لبعض التجار ثقافة عالية .

(١) السبكي - قوت القلوب ج ٢ ص ١٦٨

(٢) الاصفهاني - الاغانى ج ٢ ص ٣٩٠

(٣) رسوم دار الخلافة ص ٩١

(٤) محمود محمد بن عرنوس - القضاء في الاسلام ١٢١

(٥) الدوري - نشوء الاصناف والحرف في الاسلام ص ١٣

(٦) التنوخي - نشوار المحاصرة ج ٨ ص ٦٨

(٧) الدوري - تاريخ العراق الاقصادى ص ١١٢

(٨) اليعقوبي - البلدان ص ١٢

(٩) غي لسترنج - بغداد في عهد الخلافة العباسية ص ٢٧٣

(ج) أرباب الحرف والصناع :

كان العرب المسلمون ، ينظرون الى الحرف ، والصناعات ، نظرة امتهان (١) حتى القرن الثالث الهجري ، ثم تغيرت هذه النظرة ، وأصبح ينظر اليها ، والى القائمين بها نظرة تقدير ، وأكد ذلك بعض الكتاب - كالفزالي - (٢) الذين قالوا ان الصناعات أصبحت من ضرورات ومستلزمات الحياة الاجتماعية . وذلك لتنوعها وتعددتها والتفنن فيها (٣) .

وكان العمال يشكلون عدة عناصر ، وينقسمون الى فريقين : أولهما الأحرار ، وهؤلاء كانوا يقيمون في المدن وهم أصحاب الصنائع . أما الفريق الثاني ، فيشمل الرقيق ، وهؤلاء يشتغلون في الفلاحة أو خدما في البيوت ، أو في الصناعات البسيطة ، كالخياطة ، والحدادة ، والتجارة ، وغيرها . وهؤلاء يشملون السواد الأعظم من الصناع (٤) .

أما عن مستوى معيشة العمال ، فكان دون مستوى التجار بكثير ، ذلك أن مواردهم كانت محدودة كما يقول الدمشقي (٥) « ان الصانع كان ليس بالفقير ، ولا بالغنى لشراء ضيعة » .

(د) العامة :

لم يكن لهذه الطائفة مكانة في المجتمع العراقي ، فقد وصفهم بعض الكتاب بالجهل في الأمور الدينية (٦) وفي النواحي الثقافية (٧) .

لم يكن للعامة لباس خاص ، تتميز به عن الطبقات الأخرى ، وكان طعامهم وأغلبهم من الفقراء (٨) يتكون من خبز الشعير والدبس والحل (٩) مع قليل من

(١) صالح الملى - التنظيمات الاجتماعية ص ٢٧١

(٢) احياء العلوم - ج ١ ص ٢٣٠

(٣) هل - الحضارة العربية ص ٩٢

(٤) هلال ابن الصابي - الوزراء ص ٢٢

(٥) الإشارة الى محاسن التجارة ص ٤٣

(٦) الخطيب البغدادي - تاريخ بغداد ج ٣ ص ٧٦

(٧) ابن مسكويه - تهذيب ص ١٢١

(٨) التوحيدى - الامتاع والمؤانسة ج ١ ص ١٠٧

(٩) الكازونى - مقامه في قواعد بغداد ص ٢٥ ، ابن الجوزى - اخبار الحمقى

التمر . وكان يتصدق عليهم في مناسبات الأفراح ، والأعياد . ويدفع لهم الصدقات ، الخليفة وكبار رجالات الدولة^(١) .

هناك جماعة من العامة ، أطلق عليهم العيارون ، والشطار^(٢) تميزت حركاتها بالطابع الثوري^(٣) وبخاصة ضد السلطة الحاكمة ، وأصحاب الأموال^(٤) وكانت تضم بين صفوفها مختلف الأجناس^(٥) والطوائف^(٦) . فمن بينهم العربي والكردي والفارسي والتركي والسني والشيوعي ، فضلا عن أرباب الحرف المختلفة .

وكان لجماعة العيارين ، والشطار ، تنظيمات عسكرية ومدنية . ففيما يتعلق بالتنظيم العسكري ، كان لكل عشرة عريف ، ولكل عشرة عرفاء تقيب ، ولكل عشرة تقيب قائد ، ولكل عشرة قواد أمير . ولهم بزة عسكرية مكونة من خوذ ، مصنوعة من خوص ، وورق من البوارى المحشى بالحصى والرمل والجلال في أعناقهم ، والصدف الأحمر والأصفر^(٧) .

أما التنظيم المدني فهو يشمل النواحي الادارية الداخلية ، ولهم مكان خفى يجتمعون فيه بعيدا عن الأنظار ، وجعلوا لهم طقوسا خاصة ، ومراسيم لا بد من أدائها لمن أراد الدخول في تنظيمهم^(٨) وكذلك لباسا يميزون به عن بقية الناس ، اذ يترزون بالمتزر في أوساطهم ، ويتشحون بالازار^(٩) وكان لبس السراويل من اختصاصهم^(١٠) .

(١) ابن الجوزى - المنتظم ج ٧ ص ١٦٢
(٢) القشيري - الرسالة ص ١١٣ - ١١٤ ، السعدي - مروج الذهب ج ٦ ص ٤٦٢ - ٤٦٣ . الطبعة الأوروبية ، ابن الجوزى - تلبيس ابليس ص ٣٧٨ ، (لم يميز هؤلاء وغيرهم من المؤرخين بين العيارين والشطار تميزا واضحا وقد اطلقت كلمة فتیان على الجماعتين) .

(٣) السعدي - مروج الذهب ج ٣ ص ٣١٥

(٤) الدوري - نشوء الحرف والاصناف ص ٣٦

(٥) ابن الجوزى - المنتظم ج ٧ ص ٢٢٠

(٦) شمس الدين الذهبي - العبر في تاريخ من غير ج ٣ ص ١٠٠

(٧) السعدي - مروج الذهب ج ٣ ص ٣١٥

(٨) ابن الجوزى - تلبيس ابليس ص ٣٧٨

(٩) التبوخي - الفرج بعد الشدة ج ٢ ص ١١٢ - ١١٤ ، مصطفى جواد -

ازياء العرب مجلة التراث الشعبي ص ٥ العدد ٨

(١٠) مصطفى جواد - ازياء العرب مجلة التراث الشعبي ص ٦ العدد ٨

بدأ ظهور العيارين والشطار ، في هيئة جماعة عامة ، لها تنظيم عسكري أثناء دفاعهم عن بغداد سنة ١٩٦ هـ في الفتنة بين الأمين والمأمون^(١) . ثم في حصار بغداد الثاني سنة ٢٥٠ هـ أثناء الحرب بين المستعين والمعتز^(٢) . وأصبحت لهم خلال القرن الثالث الهجري ، قوة كبيرة منظمة ، أخذت تزداد وتهدد المجتمع ، وبخاصة في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري^(٣) حيث احترق بعض أفرادها السرقة وجعلوا غايتهم نهب الحوائت ، والأسواق ، وبيوت الأغنياء^(٤) وصاروا بذلك مصدرا للشغب وعدم استتباب الأمن كما يقول ابن مسكويه^(٥) .

-
- (١) المسعودي - مروج الذهب ج ٣ ص ٣١٥
(٢) الطبري - تاريخ الأمم والملوك ج ٧ ص ٤٣٤ وص ٤٩٠
(٣) التوحيدى - الامتاع والمؤانسة ج ٣ ص ١٦٠ ، المقدسى - أحسن التقاسيم ص ١٢٠
(٤) زيدان - تاريخ التمدن ج ٥ ص ٤٦
(٥) تجارب الامم - ج ١ ص ٦٩

تم - بمون الله - طبع هذه الخوابة بالهيئة العامة للكتاب
والاجهزة العلمية - مطبعة جامعة عين شمس في ١٥ من
ربيع الاول ١٣٩٠ الموافق ٢٠ مايو ١٩٧٠

مدير المطبعة

يحيى أحمد صالح